مجلة اللغة العربية و آدابها
السنة السادس، العدد العاشر، ربيع و صيف ۱۴۳۱ هـ/۲۰۱۰م
صفحة ۴۳ ــ ۵۸

سيد قطب و تراثه الأدبي و النقدي

حسن سرباز*
استاذ مساعد بجامعة كردستان
(تاريخ الاستلام: ۸۸/۱/۱۸ ؛ تاريخ القبول: ۸۸/۴/۲)

الملخّص

كان سيد قطب أديباً وناقداً قبل أن يكون مفكراً إسلامياً، و يرجع جزء من تأثيره ككاتب ومنظّر إسلامي إلي قدرته الأدبية وسحره في التعبير، ولكن مع ذلک فقد عرفه كثير من الناس كمفكر إسلامي فقط و لم يعرفوا أنه كان أديباً وناقداً، ولذلک فقد أهمل ثقافته الأدبية ومدرسته النقدية في زاوية من النسيان.

فتهدف هذه المقالة إلي بيان شخصيته الأدبية والنقدية، والتطرق إلي تراثه الشعري و القصصي، وإلقاء الضوء علي تراثه النقدي في مجال «القرآن الكريم» وفي مجال «الشعر والأدب».

الكلمات الرئيسة

سيد قطب، الأدب الإسلامي، النقد الأدبي.

---

* هاتف الكاتب: ۰۹۱۲۵۲۶۲۹۷۶ Email: baboleh2000@yahoo.com

المقدّمة

بدأ سيد قطب حياته العلمية أديباً وناقداً ونشر أول كتاب له تحت عنوان «مهمة الشاعر في الحياة وشعر الجيل الحاضر»، ولكن لم يعرفه كثير من الناس إلا كمفكّر ومنظّر إسلامي، وذلک من خلال دراساته الإسلامية المتعددة مثل «في ظلال القرآن»، «العدالة الاجتماعية في الإسلام»، «معالم في الطريق» و«خصائص التصور الإسلامي ومقوّماته».

وقد أهمل ثقافته الأدبية والنقدية من جانب المعجبين بفكره الإسلامي كما أهمل من جانب المعارضين لفكره ودعوته، وبذلك ترك أدبه ومدرسته النقدية في زاوية من النسيان، بحيث لم يتطرق إلي شخصيته وآثاره الأدبية النقاد والكتاب، وإذا أجبرت الضرورة العلمية أحد الباحثين علي أن يتعرّض لجزء من تراثه الأدبي أو يستفيد منه، كان يبتعد عن التصريح باسمه ويكتفي بإشارة مبهمة إليه؛ فحينما أرّخ أنور الجندي مثلاً لكبار الأدباء المعاصرين ولمعاركهم الأدبية فقد أغفل اسم سيد قطب، و عند ما كان يضطر إلى الإشارة إليه أثناء حديثه عن المعارك الأدبية كان يقول: و كتب محرّر في مجلة الرسالة كذا وكتب محرّر في مجلة دار العلوم كذا. ففي كتابه «خصائص الأدب العربي في مواجهة نظريات النقد الأدبي الحديث» الذي أصدره عام م ۱۹۷۵م أشار إلي سيد قطب عند حديثه عن المعركة التي دارت بينه وبين الدكتور محمّد مندور، بأنه أحد محرري الرسالة (الجندي،۱۹۸۵، ص ۳۱۳).

وهذه المقالة إذاً تتطرّق إلي شخصيّة سيّد قطب الأدبية، وتلقي الضوء علي آثاره الأدبية والنقدية في مجال الشعر و القصة والنقد، لتكشف زوايا مجهولة من حياة هذا الأديب الذائق والناقد البارع.

سيد قطب وتراثه الشعري

لقد مارس سيد قطب نظم الشعر في فترة مبكّرة من حياته، حيث كان شغوفاً بالشعر والأدب منذ أن كان طفلاً في قريته وتعرّف في المدرسة التي دخلها في القرية علي أخبار العرب وحفظ نماذج من أشعارهم، وحينما انتقل إلي القاهرة والتحق بمدرسة دار العلوم، أرهف ذوقه الشعري بسبب ازدهار الحياة الثقافية والأدبية في مصر آنذاک، بحيث صار الحديث في الشعر والأدب حديث الأوساط الثقافية والأدبية، كما كانت ندوة العقاد الأدبية في القاهرة ــ التي سعي إليها في أواخر العشرينات وحرص علي حضورها ــ منبعاً صافياً ارتوي منه سيّد قطب، ومع مطلع الثلاثينات قد استوت شاعريّته، فأخرج ديوانه الأول في يناير ۱۹۳۵م، وديوانه الثاني في ديسمبر ۱۹۳۷م، وكانت الفترة من ۱۹۳۰م

إلي ۱۹۴۰م فترة ازدهار شاعريّته (محمد حسين،۱۹۹۳، ص ۱۳۷-۱۳۸).

ولكن في أوائل الأربعينات قلّ اهتمام سيّد قطب بالشعر وغلب النقد الأدبي والاتجاه نحو التأليف علي شاعريّته، وأرجع عبد الباقي محمد حسين هذه الظاهرة في حياته الأدبية إلي الأسباب التالية:

۱- غلبة الطابع النقدي علي ندوة العقاد الأدبية التي كان يحضرها سيّد قطب.

۲- كان سيّد قطب رجلاً طموحاً، وميدان الشعر كان مليئاً بالفرسان الكثيرين في الوقت الذي قلّ فيه فرسان النقد الأدبي.

۳- اشتغاله بالصحافة واشتراكه في تحرير بعض المجلات كالرسالة، والفكر الجديد، والعالم العربي مما أدّي إلي انتهاب طاقاته الشعريّة وتحويلها إلي كتابة المقالات وتأليف الكتب.

۴- تحمّله أعباء مالية كثيرة في وقت كان سوق النقد والتأليف الأدبي أكثر رواجاً من تأليف وطبع الدواوين (نفس المصدر:۱۳۸).

ويمكن أن نضيف إلي هذه الأسباب دخوله في عالم القرآن الكريم وفي «مكتبة القرآن الجديدة» بعد أن حمل رصيداً نقدياً ضخماً وحساً نقدياً مرهفاً، ليتذوّق جمال القرآن الفني، ويدرس أساليبه البليغة ويدرک بعض أسرار الإعجاز التي اشتمل عليها.

ولقد برزت في شعر سيد قطب اتجاهات شعريّة مختلفة، مثل الاتجاه المحافظ البياني، والاتجاه الرومانسي الذهني والوجداني، والاتجاه الرمزي؛ لأنه « تعرّف علي سمات الشعر التقليدي والشعر الرومانسي الجديد، تعرّف علي الشعر التقليدي في مدرسة المعلمين وتجهيزيّة دار العلوم، وفي أشعار وبحوث المحافظين، وتعرّف علي سمات الشعر الرومانسي من شعر المجدّدين والمهجريّين، ومن الشعر المترجم عن شعراء الرومانسية الأجانب، ومن مقالات المجدّدين ومعاركهم النقديّة. هذا إلي جانب معرفته لبعض سمات الشعر الرمزي من شعر عبدالرحمن شكري، ومن شعر المهجريّين الذين تبدّت فيه كثير من ملامح الأداء الرمزي، ومن القصائد المترجمة لشعراء الرمزيّة الأجانب» (نفس المصدر، ص ۱۰۹).

ولكن في الوقت نفسه يظهر من شعره أنه أميل إلي التجديد في شعره منه إلي المحافظة ويغلب علي شعره النزعة الرومانسيّة باتجاهيه الذهني المتأثر من مدرسة الديوان وشخصيّة العقاد، والوجداني المتأثر من مدرسة أبولو، حيث نجد في شعره تدفق العاطفة وقوتها وحرارتها، وصدق التجربة، وحب الحق والخير والجمال، وحب المثل العليا، وتحليل المواقف الإنسانيّة، والامتزاج بالطبيعة والذوبان فيها، ويدل علي هذه النزعة الرومانسيّة في شعره عنوان ديوانه « الشاطيء المجهول » كما يدل عليها عناوين بعض قصائده مثل « النفس الضائعة »، « وحي الخلود »، حلم النيل »، « وداع الشاطيء »، « حلم الفجر »، « نداء الخريف » وغير ذلک.

وقد تناول سيد قطب في شعره قضايا مختلفة مثل إحساس الشاعر بالكون، وعلاقته بالله وبالحيـــاة وبالناس، وإحساسه بالزمن، ومثل قضيّة المرأة والقضايا الاجتماعية والوطنية.

ونجد في شعره التمرّد علي الواقع وعلي النفس والآمال، ففي التمرد علي الواقع يقول:

اغـــربي عنّي بعيداً يا حياتي قد كـــرهت العيش في جو قـــذر
اغـــربي محفـــوفة باللعنـــات ابعدي عن ساخط جهم ضجر
إنّهم لم يعرفوا معـــني الحيـــاة إنهـــم قـــد جهلوا سر الوجود
وإذا طالعهـــم طيـــف الكمال لائحـــاً يهفـــو، تولّوا في جمود

(قطب،ديوان،١٩٩٧، ص ٤٢-٤٣)

كما نجد في شعره الشكوي من الواقع والحياة والأقدار، والحنين إلي الماضي، والتأمّل في الحياة وفي النفس.

فيقول في الشكوي من الواقع والحياة:

غير أنّ الكون ذو طـــبع صفيق ناضب الإحســـاس ممسوخ الضمير
يحقر الإخلاص في القلب الشفيق ويـــري الغدر بإعـــجاب جـــدير

(نفس المصدر، ص٥٦)

وفي الشكوي من الأقدار وقساوة الدهر يقول:

يسمع الأنّات تشتقّ القلوب صارخات كشجيّات النواح
ليكاد الصخر من هول يذوب وهـــو يلقاها بهـــزء و مزاح

(نفس المصدر، ص ٥٥)

وفي الحنين إلي الماضي نسمعه يقول:

حدّثـــاني بما مضي حدّثـــاني وأعيـــــدا إلي عهـــد الأماني
واذكرا لي زمان عشت طروباً لا أبـــإلي بحادثات الزمـــــان

(نفس المصدر، ص ٧٤)

وفي التأمل في الحياة يقول علي لسان الخلة الصغيرة في حوار بينها وبين النخلة الكبيرة:

ما لنا في ذلک القـــفـــر هـــنا مـــا برحنا منذ حين شاخصات
كـــلّ شيئ صامت من حولنا وأرانا نحـــــن أيـــضاً صامتات

تطلع الشمس علينا وتغيب
ويطلّ الليل كالشيخ الكئيب
والنجوم الزهر تغدو وتثوب

وهجير وأصيل... وطلوع وأفول... ثم نبقي في ذهول

ساهمات!

(نفس المصدر، ص ١١٥)

و كان في شعره يميل إلي استخدام الصور والظلال وإضفاء الحياة علي الجمادات و بذلك عدّ من الشعراء المصوّرين، ولا غرابة في ذلك لأن التصوير و التخييل هو الصفة الغالبة علي أسلوبه، وإن لهذه الصفة جذوراً عميقة راسخة في نفسه وشعوره ومخيلتة وأحاسيسه (الخالدي،نظرية التصوير الفني عند سيد قطب،١٩٨٩: ٥٧).

لقد أكثر سيد قطب من استخدام الصور والظلال في قصائده، بل إن بعض هذه القصائد تعتبر مشاهد تصويرية رائعة محفوفة بالصور الفنية.ففي قصيدة «الخطيئة» شخّص لنا الخطيئة بحيث نحس مشيتها كالحية و نسمع صوتها الهامس يدعو الإنسان إلي الرذيلة:

من خلال الظلماءِ في بهمة الليل تمشّت كالحية الرقطاء

توقظ الجسم و الغريزة بالهمس وتطغي علي الحجا والذكاء

(قطب، ديوان، ص ١٣٤)

وفي نفس القصيدة صوّر الخطيئة بعد تغلّبها علي« الإنسان» كنشوان منتصر:

وإذا بالخطيئةالسوء نشوي بانتصار، نالته في الظلماء!

(نفس المصدر، ص ١٣٤)

وفي قصيدة«السرّ أو الشاعر في وادي الموتي» رسم مشاهد تصويرية رائعة و أجري حوارا بينه وبين أصحاب القبور كله تخييل وتجسيم، ففي المشهد الأول صوّر حركته بين القبور حين توجه إليه أهل القبور بهذا السؤال:

من الطارقُ الساري خلال المقابر كخفقة روح في الدجنات عابر

من الوَجِل المذعور في وحشة الدجي تقلّبه الأوهامُ في كل خاطر

ينقّلِ في تلك الدياجير خطوه ويخطر في همس كهمس المحاذر

وقد سكنت من حوله كل نأمة سوى قلبه الخفّاق بين الدياجر

وغشّاه روع الموت والموت روعة تغشى فيعنو كل نكسٍ وقادر

(نفس المصدر، ص ١٢٥)

وبذلك يمكن أن يعتبر سيد قطب الشاعر المصوِّر في العصر الحديث كما كان ابن الرومي الشاعر المصوِّر في العصر العباسي (الخالدي،نظرية التصوير الفني عند سيد قطب، ص ۶۹).

ويغلب علي شعر سيد قطب الوجدان وتميّزه العاطفة، لأنه كما قلنا ينتمي إلى جيل الشباب، جيل ابراهيم ناجي، وعلي محمود طه.

و يخلو شعر سيد قطب من المدح والفخر والهجاء، و الغزل الحسي الفاحش، الذي يصدر عن شهوات النفس وملذاتها، وعبث الشباب ومجونه، ويتركز حول وصف مفاتن المرأة الجسدية والحديث عن لقاءاتها المحرمّة، علي العكس من ذلك تماماً نجد في غزله الحب الطاهر العفيف الخالد الذي يرتفع بالإنسان عن خطل الجسم إلى عالم النور والضياء. وهو في الحقيقة لا يحصر الحب في حب المرأة والأصدقاء، بل يري للحب معني أوسع وأشمل فيقول في مقال له تحت عنوان «شاعر من شعراء الشباب»: «وهذا الحب الذي يخفق به قلب شاعرنا ليس مقصوراً علي حب المرأة ولا حب الأصدقاء، ما أردت بذلک قط حين قلت أن نفسه محبّة وإنما قصدت إلي معني أشمل، هو معني الحب العام الذي يعمر النفوس فلا يدع فيها مكاناً للبغضاء أو الحقد والذي يجعلها نزّاعة أبداً إلي الاجتماع والعطف، وتلقي كل مظهر من مظاهر الحياة بنوع من القبول والرفق، فهو يودّ لو يشمل الكون جميعه بالحنان وأن يشمله كل شيء في الكون بالحنان وكذلک يكون بينهما تعاطف وتراحم وتواد.بعد ذلک يظهر في حب المرأة أو حب الأصدقاء أو حب العهود الماضية والدور البالية والأشجار الناضرة والذابلة والطيور المغرّدة والنائحة» (سيد بركة،١٩٩٩، ص ١٢٩).

وهو يحب أن يبسم لكل شيء ويبسم له كل شيء، وهو يعشق الرضا والهدوء، يودّ لو كانت الحياة هدوءً ورضاءً فيقول:

هو قلب ما دري كيف الشرور لا ولا كيف يرائي أو يخون
يحفظ الودّ وحاشا أن يجور ولكم يبكي لمرأي البائسين

(قطب، ديوان، ص ١٦)

وفي قصيدة أخري يري أن العيش والحياة هو الحب العفيف البريء من الأهواء و الأدران ويقول:

ما أري العيش غير حبٍّ بريء من ذميم الأهواء والأدران
ربَّ يوم قضيته في حبورٍ بين جمع من صفوة الخلّان
دونه الدهر والحياة جميعاً في رضاءٍ ومتعة وامتنان

(نفس المصدر، ص ٧٥)

والقضية المهمة التي لا بد من الإشارة إليها هي أنه لا يوجد في شعر سيد قطب وتراثه الأدبي ما يعارض تراثه الإسلامي أو ينقضه و لا ما يشكل مغمزاً في حياته أو يضع من قدره كعلم بارز في الفكر الإسلامي المعاصر، أو يحط من جهده في مجال الدعوة والإصلاح (مقدمة الديوان، ص١٧).

ديوان شعره

لسيد قطب شعر كثير، منه ما جمعه هو بنفسه في ديوان «الشاطيء المجهول»الذي نشره في يناير سنة ١٩٣٥م وله مقدمة نثرية كتبه سيد قطب بنفسه تحدّث فيها عن «الشعر والنظريات العلمية والفلسفية»، و«الجسم والعقل والروح»، و«الجسم والزمن والوحدة»، و«الإحساس بالزمن ومحاولة الخلود»، و«ملكة التصوير وروح القصص»، و«موسيقية الديوان»، و«التعبير»، ومنه ما كان مبعثراً في الصحف والمجلات وجمعه عبد الباقي محمد حسين ونشره مع ديوان« الشاطيء المجهول» في ديوان سمّاه« ديوان سيد قطب» و هو يقول: « وديوان سيد قطب الذي نقدمه اليوم يشتمل علي كل شعره سواء ما أخرجه هو في ديوان« الشاطيء المجهول» أو ما أمكنني جمعه من الصحف والمجلات و لم ينشر في ديوان، ويشكل ديوان«الشاطيء المجهول» حوإلي نصف إنتاجه كله تقريباً و ما جمعته يشكّل النصف الباقي أو يزيد قليلاً» (نفس المصدر، ص ١٨).

ويشتمل ديوان« الشاطيء المجهول» علي سبع وخمسين قصيدة وخمس مقطوعات ومجموع أبياته ١١٠٣ بيتاً، ومجموع قصائد الشاعر خارج ديوان« الشاطيء المجهول» واحد وسبعون قصيدة ومجموع الأبيات ١۴٧٠بيتاً.

وقد رتّب عبد الباقي محمد حسين« ديوان سيد قطب» المشتمل علي ديوان «الشاطيء المجهول» والقصائد المبعثرة في الصحف و المجلات، حسب الموضوعات التي تعالجها على الأبواب التالية:

١- التمرّد، ٢- الشكوي، ٣- الحنين، ۴- التأمل، ۵- الغزل، ۶- الوصف، ٧- الرثاء، ٨- الوطنيات.

سيد قطب وتراثه القصصي

تعتبر القصة من أكثر فنون الأدب شيوعاً في العصر الحديث، بحيث غلبت علي بقية الأنواع الأدبية، واستحوذت علي فكر كثير من الأدباء والنقاد كما استحوذت علي فكر كثير من القراء، وذلک لأن القصة من أقرب الفنون الأدبية إلي النفس البشرية ولها قدرة ساحرة علي إثارة العواطف وتغذيتها؛ ولذلک قلما تجد كاتباً مرموقاً و لم يكن له اهتمام بنوع ما بفن القصة.

وقد اهتم سيد قطب بفن القصة نقداً وإبداعاً وإن لم يكن زاده كثيراً في هذا النوع من الأدب، ففي مجال نقد القصة نتحدث عن أعماله في مبحث «تراثه النقدي»، وأما في مجال الإبداع فقد حاكي رواد القصة في الأدب العربي المعاصر مع استلهام التراث الأدبي القديم، وكتب ثلاث روايات وثلاث قصص قصيرة.

كتب رواية «أشواک» علي غرار رواية «سارة» للعقاد في أواخر الثلاثينيات أو الأربعينيات. وتعطي هذه

الرواية صورة من صور النفس البشرية المحبة التي تعترض الأشواک والعقبات طريقها، وهي لا تستطيع تخطي تلک العقبات أو تحطيم هذه الأشواک كي تفوز بحبها، ولاتقدر في نفس الوقت علي نسيان هذا الحب والانصراف منه إلي غيره كي تستقرّ ويهدأ بالها، فتكون في النهاية فريسة التخبط والأحلام.(محمد حسين، سيد قطب حياته و أدبه، ۱۹۹۳، ص ۳۵۷)

والرواية في الحقيقة تجربة ذاتية للمؤلف بحيث لا يعدم القاريء السمات والملامح التي تجعل بطل الرواية نفس المؤلف.

ونشر رواية «طفل من القرية» سنة ۱۹۴۵م، اتبع فيها طريقة طه حسين في «أيامه»، وأهدي الكتاب إليه وقال: «إلي صاحب كتاب الأيام، الدكتور طه حسين بک. إنها يا سيدي أيام كأيامک، عاشها طفل في القرية. في بعضها من أيامک مَشابه، وفي سائرها اختلاف» (قطب، طفل من القرية، ۱۹۷۳، ص ۶).

ويصور سيد قطب في هذه الرواية فترة طفولته ونشأته في القرية ولكن يرسم إلي جانب تصوير حياته، صورة دقيقة للأسرة الريفية، والمجتمع القروي تجعل من الرواية وثيقة تاريخية يمكن التعرف منها علي الحياة الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والسياسية لريف مصر في تلک الفترة (نفس المصدر، ص ۵).

وكتب رواية «المدينة المسحورة» سنة ۱۹۴۵م علي نمط ألف ليل وليلة مستلهماً التراث القديم علي غرار توفيق الحكيم في مسرحية «شهرزاد»، وطه حسين في رواية «أحلام شهرزاد».

اتبع سيد قطب في هذه الرواية الطريقة التقليدية في تأليف قصص ألف ليل وليلة، فروي أحداثها علي لسان «شهرزاد»، بعد أن مهد لها بمقدمة تبين أن «شهريار» تعب من سماع القصص الأسطوري التي تقصها عليه «شهرزاد»، مما دعا إلي انسحاب «شهرزاد» من القصر وارتياح «شهريار» لهذا الانسحاب، ولكن «شهريار» لم يستطع أن يعيش في عالم الواقع كثيراً ورغب في العودة إلي عالم «شهرزاد» المسحور، فعادت تقص علي مسامعه حكاية «المدينة المسحورة» علي مدي عشر ليال تمثل كل ليلة جزء من أجزائها (محمد حسين، سيد قطب حياته و أدبه، ۱۹۹۳، ص ۳۸۰).

وفي مجال القصة القصيرة كتب قصة «الخريف» ونشرها في مجلة« الشؤون الاجتماعية» في ديسمبر۱۹۴۱م في العدد الثاني عشر، و قصة «أحياء وأموات»، نشرت في نفس المجلة في اكتوبر۱۹۴۴م في العددالعاشر، وقصة «وجه في الظلام»، نشرت في مجلة «الفكر الجديد» في يناير۱۹۴۸م في العدد الثالث (سيد بركة، ۱۹۹۹، ص ۱۰۵-۱۰۸).

إضافة علي ذلک فقد كتب سيد قطب بالاشتراک مع الروائي المصري عبد الحميد جودة السحار سلسلة « القصص الدينية للأطفال» في أربع حلقات، تضمنت الأولي معالجة فنية لقصص الأنبياء، وتناولت الثانية قصص السيرة النبوية، وجاءت الحلقة الثالثة حافلة بقصص الخلفاء الراشدين، بينما تضمنت الحلقة الرابعة حياة العرب في أوروبا حتي آخر أيامهم بالأندلس (يوسف زيد، ۱۹۸۵، ص ۲۳۸).

سيد قطب وتراثه النقدي

مارس سيد قطب النقد منذ مطلع حياته الأدبية، فقد عرف في الأوساط الأدبية وهو مازال طالباً في كلية دارالعلوم واشتهر بين زملائه في الكلية بنظراته النقدية كما اشتهر بمقالاته النقدية التي كانت تنشرها الصحف والمجلات الأدبية، وبقي يترقي في عالم النقد الأدبي حتى غدا في أواسط الأربعينات ناقداً كبيراً في مصر والعالم العربي، وأوشك على تكوين مدرسة نقدية أدبية جديدة لو لم يكن تغير اهتمامه، واتجاهه إلي الفكر الإسلامي والدراسات الإسلامية (الخالدي،نظرية التصوير الفني عند سيد قطب، ص ۸۰-۸۱).

وفي هذه المقالة أتطرق إلي تراث سيد قطب النقدي في المجالين التاليين:

۱- تراثه النقدي في«مكتبة القرآن الجديدة».

۲- تراثه النقدي في مجال الشعر والأدب.

تراثه النقدي في « مكتبة القران الجديدة»

دخل سيد قطب إلى عالم القرآن الكريم بعد أن حمل رصيداً نقديّاً ضخماً وحسا نقديّاً مرهفاً، ليتذوق جمال القرآن الفني، ويدرس أساليبه البليغة في البيان ويتحسس مواطن الحسن ومنابع السحر في تعبيره الجميل، و ليدرك بعض أسرار الإعجاز التي اشتمل عليها.

و أول ما قام به في هذا المجال هو مقال نشره في مجلة المقتطف سنة ۱۹۳۹م بعنوان«التصوير الفني في القرآن الكريم» بيّن في مقدمتها أن القرآن رغم ما قامت حوله من دراسات فانه لم يدرس من الناحية الفنية دراسة حقيقية، و ذكر أنّ دراسة القرآن من الناحية الفنية واجبة اليوم (قطب، التصوير الفني في القرآن، ۲۰۰۶، ص ۸-۹).

وبعد مرور ستة أعوام كاملة علي نشره هذا البحث وفي مطلع عام ۱۹۴۵م، خرج سيد قطب علي الناس بكتابه الرائع «التصوير الفني في القرآن» والذي سجّل فيه اكتشافه لهذه الظاهرة في التعبير القرآني.

وكان سيد قطب يهدف إلي أن يجعل كتاب«التصوير الفني في القرآن» أساس الدراسات القرآنية التي ينوي إعدادها، حيث جعله الكتاب الأول في «مكتبة القرآن الجديدة» التي عقد العزم علي إنشائها والتي أخرج منها ثلاثة كتب فقط و هي: «التصوير الفني في القرآن»، و«مشاهد القيامة في القرآن»، و« في ظلال القرآن» وأعلن عن أربعة كتب أخري كحلقات في مكتبة القرآن الجديدة و هي: «القصة بين التوراة و القرآن»، و«المنطق الوجداني في القرآن»، و«النماذج الإنسانية في القرآن»، و «أساليب العرض الفني في القرآن» ولكنه عدل عن نشرها (نفس المصدر، ص ۲۵۴).

وكانت نظرة سيد قطب الأولي إلي القرآن الكريم نظرة فنية جمالية، ولدواع أدبية بحتة، و كان يبحث عن الجمال والفن في التعبير القرآني، ويعد كتابه « التصوير الفني في القرآن» عملا أدبيّا يتعامل مع النص القرآني كنص أدبي مؤثر في حياة المسلمين، وقد أعلن هذا مراراً وقال في مقدمة الكتاب: «كان همّي كله موجّها إلي الجانب الفني الخالص، دون التعرض للمباحث اللغوية أو الكلامية أو الفقهية أو سواها من مباحث القرآن المطروقة» (نفس المصدر، ص ۹).

وقال في مقدمة كتاب «مشاهد القيامة في القرآن»: «فإني لأرجو أن أكون قد وُفقت في هدفي القريب من هذا الكتاب، كما أتمنّي أن أوفّق في الهدف البعيد الذي أرجوه من لواحقه، ذلك الهدف البعيد، هو إعادة عرض القرآن، واستحياء الجمال الفني الخالص فيه، و استنقاذه من ركام التأويل والتعقيد، وفرزه من سائر الأغراض الأخري التي جاء لها القرآن بما فيها الغرض الديني ايضاً، فهدفي هنا هدف فني خالص محض، لا أتأثر فيه إلا بحاسة الناقد الفني المستقل، فإذا التقت في النهاية قداسة الفن بقداسة الدين فتلك نتيجة لم أقصد إليها و لم أتأثر بها، إنما هي خاصة كامنة في طبيعة القرآن، تلتقي عندها دروب البحث في النهاية ولو لم يحسب السالك حسابها في الطريق» (قطب، مشاهد القيامة في القرآن، ۲۰۰۶، ص ۱۲).

هذا الهدف الفني المحض يبرز في الكتابين اللذين أصدرهما من «مكتبة القرآن الجديدة» وهما «التصوير الفني في القرآن» و «مشاهد القيامة في القرآن»، أما الكتاب الثالث الذي ظهر بعد ذلك وهو «في ظلال القرآن» فلم يكن الهدف الفني هو هدف سيد قطب الوحيد في التفسير، وإنما كان معه أهداف أخري وكان هدفه من« الظلال» هدفا فنيا وهدفاً دينياً في نفس الوقت.

وفي الحقيقة قد طرأ في هذه المرحلة تغيير كبير على شخصية سيد قطب تحول فيها من ناقد أدبي صرف إلى داعية ينطلق من أسس فكرية معينة ينظر من خلالها إلى القرآن الكريم كمنهج حياة يضمن للبشرية الراحة والطمأنينة والرفعة والبركة والطهارة والتناسق مع السنن الكونية.

يقول سيد قطب في مقدمة «في ظلال القرآن»: «وانتهيت من فترة الحياة ــ في ظلال القرآن ــ إلى يقين جازم حاسم إنه لا صلاح لهذه الأرض، ولا راحة لهذه البشرية، ولا طمأنينة لهذا الإنسان، ولا رفعة ولا بركة ولا طهارة، ولا تناسق مع سنن الكون وفطرة الحياة... إلا بالرجوع إلى الله، والرجوع إلى الله كما يتجلى في ظلال القرآن له صورة واحدة وطريق واحد لا سواه، إنه العودة بالحياة كلها إلى منهج الله الذي رسمه للبشرية في كتابه الكريم، إنه تحكيم هذا الكتاب وحده في حياتها و التحاكم إليه وحده في شؤونها، وإلا فهو الفساد في الأرض والشقاوة للناس» (قطب، في ظلال القرآن، ۱۹۸۸م، ج۱، ص ۱۵).

ولكن هذا لا يمنع أن يتضمن تفسير «في ظلال القرآن» أشياء تتصل بالأداء الفني بحيث يكون امتدادا لمنحي «التصوير الفني في القرآن»، ولو تتبعنا العلاقة بين الكتابين، لرأينا أن سيد قطب يستشهد كثيرا في تفسيره بالتصوير الفني (البدوي،۲۰۰۲، ص ۱۴۰).

تراثه النقدي في مجال الشعر والأدب

أول كتاب نقدي كتبه سيد قطب هو كتاب «مهمّة الشاعر في الحياة و شعراء الجيل المعاصر» الذي كان في الأصل محاضرة ألقاها في قاعة كلية دار العلوم وحضرها الأساتذة والطلاب وأعجب الجميع بنظراته النقدية كما أعجبوا بجرأته في الإعلان عن آرائه. وطبع هذا الكتاب سنة۱۹۳۳م (الخالدي، سيد قطب از ولادت تا شهادت،۱۳۸۰، ص ۶۴۷) وبذلك يعتبر أول كتاب مطبوع له، وهذا يدل علي اهتمامه الكبير بنقد الأدب. وتحدّث سيد قطب في هذا الكتاب عن: مهمّة الشاعرفي الحياة، من هو الشاعر؟، الخيال في الشعر،ذوق الشاعر، التعبيرات الشعرية، وشخصيّة الشاعر.

واعتبر الشعر أحد الفنون الجميلة ورأي أن أكبر مهمّة لهذه الفنون جميعها أن تقوم واسطة بين ما هو كائن وما يجب أن يكون، وأن يقرّبنا من المثل الأعلي الذي نرنو إليه كلما عزّ علينا بلوغه في عالم الحقيقة (قطب، مهمة الشاعر في الحياة، ص ۱۳).

وكتاب نقدي آخر له هو كتاب «كتب وشخصيات» الذي كان في الأصل مقالات نقدية كتبها سيد في مجلات الرسالة، المقتطف، الكاتب، والكاتب المصري ثم جمعها وطبعها بهذا العنوان سنة ۱۹۴۶م واختار في الكتاب شخصيات أدبية وكتبهم الأدبية و تصدي لتحليل و نقد هذه الشخصيات وآثارهم.

ففي البداية تطرق سيّد قطب في هذا الكتاب إلي وظيفة النقد وأصوله ورأي أنّ وظيفة الناقد في الجو العام هو التوجيه والتقويم ووضع الأسس، وتشخيص المذاهب وتصوير أطوارها ومناهجها، بينما وظيفته مع كل مؤلف هو وضع «مفتاحه» في أيدي قرائه الذين يقرأون أعماله متفرقة ولا يدركون الطبيعة الفنية التي تصدر عنها هذه الأعمال (قطب، كتب وشخصيات،۱۹۴۶، ص ۵).

ثم تناول بالبحث كتبا وشخصيات في عالم الشعر، والقصة والرواية، والنفس والعالم، والبحوث والدراسات، والتراجم والتاريخ.

ففي عالم الشعر بعد مقدمة حول «الوعي في الشعر»، و «النفس الإنسانية في الشعر العربي»، و «الطبيعة في الشعر العربي»، درس «أغاني شيراز» ترجمة ديوان حافظ الشيرازي، الشاعر الايراني الشهير، فأعجب بعالم حافظ العذب وبروحه الصافية و قال: «لقد أخلدت مع حافظ إلي الغناء العذب بروح صادقة، لا تكدّرها شوائب الحياة، ولاهموم العيش، ولا أحقاد الناس، ولا تفسدها

كذلک غواشي القلق، ولا هموم الفكر، ولا الجدل الذهني العقيم» (نفس المصدر،ص٧١)، كما درس ديوان «أعاصير مغرب» للعقاد.

ونقد تحت عنوان «من شعراء المجون» كتاب «بشّار» للمازني، و «أبونواس» لعبد الرحمن صدقي، و «أبونواس» لعبد الحليم عباس.

وفي عالم القصة والرواية نقد «علي هامش السيرة» و «أحلام شهرزاد» و«شجرة البؤس» لطه حسين، و «بيجماليون» و«الرباط المقدس» لتوفيق الحكيم، و «ابراهيم الثاني » للمازني، و«الرواية الشعرية بين شوقي وعزيز أباظة» للدكتور أحمد بک زكي، و «العباسة» لعزيز أباظة، كما نقد «سارق النار» لخليل هنداوي، و «خان الخليلي» لنجيب محفوظ، و «المليم الأكبر» لعادل كامل، و «بنت الشيطان» لمحمود تيمور، و«قنديل أم هاشم» ليحيي حقي، و«همزات الشياطين» لعبد الحميد جودة السحار.

وفي عالم النفس والعالم درس كتاب «البيادر» لميخائيل نعيمة، و«أومن بالإنسان» لعبد المنعم خلاف، و«سند باد عصري» لحسين فوزي، و«العناصر النفسية في سياسة العرب» لشفيق جبري.

وفي مجال البحوث والدراسات تطرق إلي كتاب «علي هامش التاريخ المصري القديم» لعبد القادر حمزة، و«شوقي» لأنطون الجميل، و«دفاع عن البلاغة» للزيات، و«بين الفلسفة والأدب» لعلي أدهم.

وفي قسم التراجم والتاريخ نقد كتاب «شاعر الغزل» للعقاد وقارن فيه بين العقاد وهيكل وطه حسين في دراسة الشخصيات، كما نقد كتاب «محمد علي الكبير» لشفيق غربال. وفي الختام نقد كتاب «مدينة دمشق» لمحمد كرد علي، و«مدينة بغداد» لطه الراوي.

ولكن أهم أثر نقدي لسيد قطب هو كتاب «النقد الأدبي أصوله ومناهجه» الذي يظهر آراء سيد قطب النقدية وطبع سنة١٩٤٨ م، وأهدي سيد قطب كتابه هذا إلي الناقد العربي الكبير «الشيخ عبدالقاهر الجرجاني» باعتباره اول ناقد عربي أقام النقد الأدبي علي أسس علمية نظرية، و لم يطمس بذلك روحه الأدبية الفنية، وبيّن في مقدمته وظيفة النقد الأدبي وقال: «هو تقويم العمل الأدبي من الناحية الفنية، و بيان قيمته الموضوعيّة، و قيمه التعبيريّة والشعورية، و تعيين مكانه في خط سير الأدب، وتحديد ما أضافه إلي التراث الأدبي في لغته وفي العالم الأدبي كله، وقياس مدي تأثره بالمحيط، وتأثيره فيه، وتصوير سمات صاحبه وخصائصه الشعورية و التعبيرية، وكشف العوامل النفسية التي اشتركت في تكوينه والعوامل الخارجية كذلك» (قطب، النقد الأدبي أصوله ومناهجه،١٩٩٠، ص ٧).

ثم تحدّث عن العمل الأدبي و عرّفه بأنه «التعبير عن تجربة شعورية في صورة موحية» (نفس المصدر: ٩)، ورأي أن التعبير الجميل لا يدخل في باب الأدب إلا إذا كان تعبيراً عن تجربة شعورية.

ثم أ شار إلي القيم الشعورية و القيم التعبيرية في العمل الأدبي ورأي أن العمل الأدبي وحدة مؤلفة من الشعور و التعبير، ويصعب الفصل بينهما فقال: «ومن هنا نجد أن هناك صعوبة مادية في تقسيم العمل الأدبي إلي عناصر لفظ ومعني أو شعور و تعبير، فالقيم الشعورية والتعبيرية كلتاهما وحدة لاانفصام لها في العمل الأدبي، وليست الصورة التعبيرية إلاثمرة للانفعال بالتجربة الشعورية، وليست القيمة الشعورية إلا ما استطاعت الألفاظ أن تصوّره، وأن تنقله إلي مشاعر الآخرين» (نفس المصدر، ص۲۱).

وذكر للتجربة الشعورية ثلاث سمات أساسية وهي:

١. أنّ لكل أديب طابعه الخاص، ولا يري تعارضاً بين أن يكون للأديب طابعه الخاص، وأن يقع التجاوب بينه وبين الآخرين،لأن هناک قدراً مشتركاً من المشاعر الانسانية العميقة، كما أن هناک استعداداً في الكثيرين لأن يسمو علي طبيعتهم.
٢. أن الأديب له اتصال بنبع الحياة وبالكون الكبير، ويفتح المنافذ بيننا وبين هذا النبع بقدر ما نطيق، ويري أن قيمة الأديب الكبري إنما تقاس بمقدار اتصاله بهذا النبع.
٣. أن الشاعر لابد أن يكون صادقاً، لأنه لايكون للشاعر طابع خاص، ولا يستطيع أن يصلنا بنبع الحياة والكون الكبير إلا إذا كان صادقاً، ولكن لا يعني سيد قطب بالصدق، الصدق الواقعي لأنه مبحث يهم الأخلاق علي حد تعبيره، وإنما يعني الصدق الفني أي صدق الشعور بالحياة وصدق التأثر بالمشاعر (نفس المصدر، صص ٢٢-٣٢).

و في القيم التعبيرية تحدث عن الألفاظ وكيفية دلالتها علي معانيها الذهنية والصور والظلال المصاحبة لها، كما تحدث عن «العبارة» في العمل الأدبي و«طريقة تناول الموضوع والسير فيه» ورأي أن العبارة« تستمد دلالتها في العمل الأدبي من مفردات الدلالات اللغوية للألفاظ، ومن الدلالة المعنوية الناشئة عن اجتماع الألفاظ وترتيبها في نسق معين، ثم من الإيقاع الموسيقي الناشيء من مجموعة إيقاعات الألفاظ متناغماً بعضها مع بعض، ثم من الصور والظلال التي تشعها الألفاظ متناسقة في العبارة» (نفس المصدر، ص ۴۳).

وبعد ذلك تحدّث عن فنون العمل الأدبي وذكر منها الشعر، والقصة، والأقصوصة، والتمثيلية، والترجمة والسيرة، والخاطرة والمقالة والبحث، وذكر هذه الفنون كتفصيل لما قاله في «العمل الأدبي» لاختلاف طريقة تناول الموضوع وطبيعة التجربة الشعورية والتعبير عنها في هذه الفنون المختلفة، فيقول في ذلك: «وإذا كانت عناصر التعبير هي الدلالة اللغوية للألفاظ والعبارات، والإيقاعات الموسيقية للكلمات والتراكيب، والصور و الظلال الزائدة علي المعاني اللغوية، ثم تناول الموضوع و السيرفيه، إذا كانت هذه هي عناصر التعبير الأدبي عامة فإنها ليست بدرجة واحدة في كل فنون العمل الأدبي

وبخاصة طريقة تناول الموضوع و السيرفيه، فهي تختلف في كل فن عنها في الآخر حسب موضوعه واتجاهه، وقبل هذا كله هناك طبيعة التجربة الشعورية في كل فن من الفنون الأدبية المختلفة.» (نفس المصدر، ص ۵۴).

ثم تحدّث عن قواعد النقد الأدبي بين الفلسفة والعلم و رأي أن إقامة قواعد النقد الفني علي أساس من الفلسفة والدراسات العلمية مجدية ومفيدة إذا لم تصل إلي الطبيعة الفنية والأسلوب الفني أو العمل الفني ذاته فيقول: «وإنه ليكون من الخطأ الفادح، الاعتماد الكلي في قواعد النقد الفني علي أساس علم لايستطاع الجزم فيه بشيء إلا وهناك احتمال أن تظهر وراء هذا الجزم حالات لا يشملها، وقد تغيّره من الأساس» (نفس المصدر، ص ۱۰۸).

ويقول أيضاً بعد أن ذكر أمثلة مختلفة في الاعتماد علي الدراسات العلمية و الفلسفية في النقد الفني:«ولعلنا ننتهي من هذه الأمثلة إلي شيء من القصد في الاعتماد علي الدراسات العلمية في صدد النقد الفني، فهي مأمونة و مجدية طالما هي تبحث في المحيط البعيد الواسع للعمل الفني، ولكنها تفقد قيمتها حين تصل إلي الطبيعة الفنية والأسلوب الفني، أو إلي العمل الفني ذاته، ولابد حينئذ من استخدام الوسائل الفنية البحتة المعتمدة علي الشعور والذوق، وعلي القواعد الفنية المباشرة المتصلة بأدوات الفن وطرائقه في التعبير والأداء» (نفس المصدر، ص ۱۰۹).

وفي الختام تحدث سيد قطب عن مناهج النقد الأدبي وذكر منها: ۱-المنهج الفني؛ ۲-المنهج التاريخي؛ ۳-المنهج النفسي؛ ۴-المنهج المتكامل، ورأي أن هذه المناهج تصلح و تفيد حين تتخذ منارات ومعالم، ولكنها تفسد وتضر إذا جعلت قيوداً وحدوداً. وهو وإن كان يميل إلي المنهج الفني ولكن يرجّح من بين هذه المناهج المنهج المتكامل الذي يشمل المنهج الفني والتاريخي والنفسي ويراه أفضل وأكمل منهج نقدي لابد أن يسلك طريقه في النقد الأدبي ويقول: «وهكذا ننتهي إلي القيمة الأساسية لهذا المنهج «المنهج المتكامل» في النقد، وهي أنه يتناول العمل الأدبي من جميع زواياه، ويتناول صاحبه كذلك بجانب تناوله للبيئة و التاريخ، وأنه لا يغفل القيم الفنية الخالصة، ولا يغرقها في غمار البحوث التاريخية أو الدراسات النفسية، وأنه يجعلنا نعيش في جو الأدب الخاص، دون أن ننسي مع هذا أنه أحد مظاهر النشاط النفسي، و أحد مظاهر المجتمع التاريخية» (نفس المصدر، ص ۲۲۸).

نتيجة البحث

لقد حاولت في هذه الدراسة أن أدرس صفحة مجهولة من صفحات حياة سيد قطب، وألقي الضوء علي حياته الأدبية والنقدية و قد وصلت إلي النتائج التالية:

١- كان سيد قطب أديباً وناقداً قبل أن يكون مفكراً إسلامياً، ويرجع جزء من تأثيره ككاتب ومنظِّر إسلامي إلي قدرته الأدبية وسحره في التعبير.

٢- مارس سيد قطب نظم الشعر في فترة مبكرة من حياته، وتعد الفترة من ١٩٣٠م إلي ١٩٤٠م فترة ازدهار شاعريته. ولقد برزت في شعره اتجاهات شعرية مختلفة مثل الاتجاه المحافظ البياني لشعراء مدرسة الديوان، والاتجاه الرومانسي الذهني والوجداني، والاتجاه الرمزي، ولكن يغلب علي شعره النزعة الرومانسية باتجاهيه الذهني المتأثر من مدرسة الديوان، والوجداني المتأثر من مدرسة أبولو. ويخلو شعره من المدح والفخر والهجاء والغزل الحسي الفاحش.

٣- مارس سيد قطب النقد من بداية حياته الأدبية وكانت اهتماماته النقدية في مجال «القرآن الكريم» وفي مجال «الشعر والأدب». ففي مجال «القرآن الكريم» كتب «التصوير الفني في القرآن» و«مشاهد القيامة في القرآن» وكانت نظرته إلي القرآن الكريم في هذين الكتابين نظرة فنية جمالية ولدواع أدبية، و«في ظلال القرآن» ولم يكن هدفه في هذا الكتاب هدفاً فنياً فقط، بل كان هدفه فنياً ودينياً، و في مجال «الشعر والأدب» كتب «مهمة الشاعر في الحياة و شعر الجيل الحاضر» و«كتب وشخصيات» و«النقد الأدبي أصوله ومناهجه».

المصادر و المراجع

١. البدوي، أحمد محمد، ***سيد قطب ناقداً***، الطبعة الأولي، الدار الثقافية، القاهرة، ٢٠٠٢م.

٢. الجندي، أنور، ***خصائص الأدب العربي في نظريات النقد الأدبي الحديث***، الطبعة الثانية، دارالكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٥م.

٣. الخالدي، صلاح عبدالفتاح، ***نظرية التصوير الفني عند سيد قطب***، جده، الطبعة الثانية، دارالمنار، جده، ١٩٨٩م.

٤. الخالدي، صلاح عبدالفتاح، ***سيد قطب از ولادت تا شهادت***، ترجمه جليل بهرامي نيا، الطبعة الأولي، نشر احسان، طهران، ١٣٨٠ش.

٥. سيد بركة، محمد، ***سيد قطب صفحات مجهولة***، دار الاعتصام، ١٩٩٩م.

٦. قطب، سيد، ***كتب وشخصيات***، الطبعة الأولي، مطبعة الرسالة، ١٩٤٦م.

٧. قطب، سيد، ***طفل من القرية***، دار الشروق، بيروت، ١٩٧٣م.

٨. قطب، سيد، **مهمّة الشاعر في الحياة وشعر الجيل الحاضر**، بدون تاريخ ومحل النشر.

٩. قطب، سيد، ***مشاهد القيامة في القرآن***، دارالمعارف، القاهرة، ٢٠٠٦م.

١٠. قطب، سيد، ***ديوان سيد قطب***، جمع وتوثيق عبدالباقي محمد حسين، الطبعة الثانية،المنصورة، دارالوفاء، ١٩٩٧م.

١١. قطب، سيد، ***في ظلال القرآن***، الطبعة الخامسة عشرة، دارالشروق، بيروت، ١٩٩٨م.

١٢. قطب، سيد، ***التصوير الفني في القرآن***، بيروت، دارالشروق، ٢٠٠٦م.

١٣. قطب، سيد، ***النقد الأدبي أصوله ومناهجه***، الطبعة السادسة، دارالشروق، بيروت، ١٩٩٠ م.

١٤. محمد حسين، عبد الباقي، ***سيّد قطب حياته وأدبه***، الطبعة الثانية، دار الوفاء المنصورة، ١٩٩٣م.

١٥. يوسف زيد، صفوت، ***التيار الإسلامي في قصص عبد الحميد جودة السحار***، الطبعة الاولي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٥م.